مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد التاسع ،العدد الأول ،جانفي 2024، ص - ص78 -96.

ثقافة المقاومة في كتابات النخبة الجزائرية بتونس قبل ثورة التحرير 1954

Culture of resistance in the writings of the Algerian Elite in Tunisia before the Liberation Revolution, 1954

عبد النوز فتيحة(*)

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار – قسنطينة، (الجزائر)، abdennouzf@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 06 /2023/06 **تاريخ القبول:** 16 /2024/01 **تاريخ النشر:** 25 /2024/01

الملخص

يتناول هذا المقال حضور القضية الجزائرية في البلاد التونسية قبل ثورة التحرير، من خلال نشاط الجزائريين هناك الذين أسسوا لثقافة المقاومة ضد الفرنسيين جنبا إلى جنب مع التونسيين، من خلال إنشاء الجمعيات والأحزاب السياسية، ولم تقتصر ثقافة المقاومة على العمل السياسي فحسب، بل امتدت إلى المجال الفكري، فظهر الوعي التحرري في الإنتاج الأدبي للنخبة الجزائرية في تونس.

كان للكتابة الصحفية دورا بارزا في ظهور إرهاصات ثورة التحرير في الصحف التونسية، بالأقلام الجزائرية وتونسية على حد السواء. وشكلت كتابات الأدباء والشعراء التونسيين والجزائريين بتونس حول الجزائر والأحداث التي شهدتها دعما للنضال الجزائري، بعد أن كرسوا أقلامهم لإمدادها بالمقالات السياسية والقصائد الشعرية التي تشيد بكفاح الجزائريين ضد الاحتلال وتستنهض الهمم للتحرر، وأصبحت البلاد التونسية صوتا للجزائر ولثورتها وقضيتها، وصوتا للفكر الثوري الجزائري قبل انطلاق ثورة أول نوفمبر 1954م.

الكلمات الدالة الجزائر؛ نخبة؛ ثقافة؛ الهجرة؛ تحرير.

Abstrac:

In this article essay on the question of Algeria in the Tunisian country before the Liberation Revolution through the activity of the Algerians there who founded the culture of resistance against the French occupancy with the Tunisians through the establishment of associations and political parties. The culture of the resistance was not limited to political action, the liberal awareness of the literary production of the Algerian elite emerged in Tunisia.

Press writings played a prominent role in the emergence of the revolutionaries in the Tunisian press, with Algerian and Tunisian pens alike. Tunisian and Algerian writers and poets wrote about Algeria and

* المؤلف المرسل.

the events they witnessed in support of the Algerian struggle after they dedicated their pens to political articles and poetic poems praising the struggle of the Algerians against the occupation and the drive for liberation. The Tunisian country became a voice for Algeria and its revolution and cause. November 1, 1954.

Keywords: Algeria; Culture; immigration; Elite; Liberation.

1. مقدمة:

أخذت مسألة الاحتلال الفرنسي للجزائر حيزا هاما بوصفها قضية من أهم قضايا العالم العربي والإسلامي، فكانت في قلب اهتمام المغاربة والمشارقة، حيث وجد بعض الجزائريين مجالا أبرزوا فيه معاناة بلادهم ومنفذا لممارسة نشاطهم والتعريف بقضيتهم، كما وجدوا مؤازرة ودعما واسعا من مختلف الأقطار التي حلوا بها. لذا فإن هذا المقال يهدف إلى إبراز جوانب من الإنتاج الفكري للنخبة الجزائرية التي هاجرت إلى تونس وساهمت في احداث يقظة فكرية، حملت في ثناياها وعيا تحرريا، شكّل الإرهاصات الأولى لثورة أول نوفمبر 1954م كما يهدف إلى الوقوف على دور هذه النخبة في العمل من أجل قضية بلادها في المهجر.

كانت تونس بحكم صلة الجوار وبما يتوفر فيها من مؤسسات علمية ومجال أكثر حرية، أهم حاضنة لأول إرهاصات ثورة التحرير، وبلورة الفكر التحرري، فهجرة الجزائريين من رجال الفكر والدين والثقافة إلى البلاد التونسية، كان بسبب انعدام الفضاء الحر للتعلم وللتعبير في بلدهم من جهة، ولما لتونس من مقومات النهضة الفكرية المنشودة، والانفتاح على الفكر النهضوي ورموزه في العالم العربي من جهة أخرى، لذا جعلوا منها أرضية خصبة لنشاطهم الفكري.

لقد ساهمت البلاد التونسية، بفضل احتضانها للنخبة الجزائرية ولنشاطهم الفكري والسياسي، في تحرير العقول من سبات كرسته سياسة التجهيل الاستعمارية في الجزائر، وكان

ثمرته اندلاع الثورة التحريرية، ومن هذا المنطلق فإن إشكالية هذا المقال يمكن حصرها في هذا التساؤل: **ما مدى الاهتمام التونسي بالقضية الجزائرية؟ وما دورهم ودور الجزائريين بتونس في ترسيخ الفكر التحرري من الاستعمار قبل 1954**. وسأتناول هذا الموضوع في ثلاثة عناصر أساسية، العنصر الأول يتعلق بنشاط الجزائريين في تونس وثقافة المقاومة من خلال الأحزاب السياسية والجمعيات، والعنصر الثاني سأتطرق فيه إلى ثقافة المقاومة في الإنتاج الأدبي للنخبة الجزائرية في تونس، أما العنصر الثالث سأتناول فيه ثقافة المقاومة في الصحف التونسية، سواء أكان بأقلام الجزائرية أم تونسية.

2. ثقافة المقاومة في النشاط السياسي عند الجزائريين بتونس:

تميز النشاط السياسي والحزبي في تونس بالعمل المشترك بين التونسيين والجزائريين فظهرت أحزاب سياسية مشتركة لإبراز المطالب الوطنية ضمن إطار قانوني، وكان أول هذه الأحزاب حزب **تونس الفتاة** أو **حزب الشباب التونسي** الذي تأسس سنة 1907م من قِبل "البشير صفر" وعلي باش حانبه والشيخ عبد العزيز الثعالبي[1] (الجزائري الأصل) ومُحَمَّد باش حانبه وحسن قلاتي وعبد الجليل الزواش وعدد قليل من المناضلين المنحدرين من برجوازية أصلها من طبقة الأتراك الحاكمة.[2] كانت مطالبه في البداية مرتبطة بالجانب الاقتصادي تم أخذ الصبغة السياسية، والدفاع عن القضايا الوطنية وحقوق التونسيين في إطار الهوية العربية الإسلامية.[3] وكان لعبد العزيز الثعالبي دورا أساسيا في هذا التوجه، خصوصا بداية من سنة 1909م وترأسه تحرير جريدة "التونسي" التابعة للحزب، والتي تحولت من جريدة ناطقة بالفرنسية إلى جريدة ناطقة باللسان العربي، وتمتع هذا الحزب بتأييد شعبي قوي.[4] وقد ساند الحزب كل حركات المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين مما أدى إلى مطاردة أعضائه وتشتيتهم.

كانت روح الحرية والثورة تنبعث من نشاط الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وظل يناضل بالقلم حيث ألف كتاب: **روح التحرر في القرآن** وكتاب **تونس الشهيدة**، فتاهمته السلطة الفرنسية بالزندقة وألقت عليه القبض بباريس، وحولته إلى سجن بتونس لكن سرعان ما أفرجت

عنه بسبب المظاهرات التي عمت شوارع تونس للمطالبة بإطلاق سراحه.[5] وبعد أن اضطرت السلطات الفرنسية إلى الافراج عنه، شرع عبد العزيز الثعالبي في تأسيس حزب جديد أسماه "**الحزب الدستوري الحر**" في 30 جوان 1920م مع مجموعة من الطلبة الجزائريين والتونسيين، لكن ملاحقة فرنسا له حال دون تحقيق مساعيه، فألقت القبض على مؤسسه يوم 28 جويلية 1920م، وظل رهن الاعتقال إلى غاية 1921م.[6] في هذه الأثناء أعاد رفاق الثعالبي هيكلة الحزب باسم "**الحزب التونسي**" وظلت أهدافه هي أهداف الحزب الدستوري الحر نفسها، ومنحت رئاسته لعبد العزيز الثعالبي غيابيا، ومن أعضائه أحمد توفيق المدني وحسن قلاتي وصالح بن يحي والطيب بن عيسى وإبراهيم أطفيش وعبد الرحمن اليعلاوي وعدد آخر من التونسيين. تضمنت مطالب الحزب الدعوة إلى نظام دستوري لتونس وتأليف حكومة وطنية، وقد ساهم الطلبة الجزائريون بقسط مهم في الدعاية للحزب الدستوري وتمويله،[7] لكن نتيجة هذا النشاط تسبب في تعرض أعضائه إلى التعذيب والاضطهاد والنفي، فتم ترحيل توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي وصالح بن يحي إلى الجزائر، والشيخ إبراهيم أطفيّش إلى القاهرة.[8] بعد تشتيت مؤسسيه عمل الحزب على انتخاب لجنة جديدة مكونة من (محمود الماطري[9] والطاهر صفر ومُحَمَّد بورقيبة وشقيقه الحبيب بورقيبة) لكن ظهرت خلافات بينهم وبين قيادة الحزب القديمة أدت إلى انقسامه إلى حزبين "الحزب الدستوري الجديد" الذي تأسس في 2 مارس 1934م وأعضائه الماطري والطاهر وبورقيبة وهو الجيل الشاب المتطلع إلى التجديد.[10] و"الحزب الدستوري القديم" الذي يمثل اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري الحر وهم جيل الشيوخ ظلوا متمسكين بمبادئ مؤسسه "عبد العزيز الثعالبي"، لكنه حل نهائيا سنة 1944م.[11] يتبين لنا من خلال نشاط الجزائريين السياسي في البلاد التونسية تشبعهم بروح التحرر وثقافة المقاومة، وبذلك يتجلى الفكر الثوري في نشاط النخبة السياسية الجزائرية في البلاد التونسية.

لم يقتصر دور الجزائريين الذين درسوا بالمعاهد العلمية المختلفة في تونس، خصوصا جامع الزيتونة، على تلقي الدروس فقط والحصول على شهادات ثم العودة إلى بلادهم، بل كان لهم دور بارز في مجال النشاط الطلابي، وتأسيس الجمعيات وتحريكها والانخراط في الأندية

الأدبية التونسية والاندفاع للعمل ضمنها.[12] وتعد جمعية "**تلامذة جامع الزيتونة**" أول الجمعيات الثقافية، المكونة من جزائريين وتونسيين، أسسها كل من التونسي عبد الرحمان الكعاك والجزائري الطيب بن عيسى، كرد فعل على الحملة التي كانت تنتقد التعليم الزيتوني والتي برزت سنة 1901م.[13]وبعد قرابة خمسة وعشرين عاما أسس أحمد توفيق المدني مع مجموعة من الجزائريين والتونسيين في 15 ماي 1924م "**المجمع العلمي التونسي**" ، كان هدفهم من وراء ذلك رفع المؤهلات العلمية للبلاد، ليعيد لتونس أمجادها العلمية السالفة، كما أسسوا "**الرابطة العلمية**" سنة 1924م وذلك لإيجاد وسيلة فعالة للتضامن الفكري والعلمي بينهم ورفع مستوى شعبهم العلمي والسياسي والاجتماعي.[14]

كان حضور الجزائر وقضيتها حاضرا بقوة من خلال عديد النشاطات الثقافية، نذكر على سبيل المثال محاضرة كان موضوعها: "**الجزائر في ميدان العمل**" قدمت بالخلدونية في 18 جوان 1937م ألقاها الشاعر مفدي زكريا، استعرض فيها تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر وأثنى على نشاط الوطنيين الجزائريين في سبيل تحرير الجزائر، وفي هذه الفترة ألقى الشيخ عبد الحميد بن باديس محاضرة عامة بتونس بدعوة من جمعية الطلبة الجزائريين والجمعية الودادية الجزائرية بعنوان: "**الحركة العلمية والسياسية في القطر الجزائري**.[15]

تواصل النشاط الثقافي الثوري في إطار الجمعيات في البلاد التونسية، وظهرت الدعوة إلى العمل التحرري المشترك، ومن ذلك ما طرحه "مُحَمَّد العيد الجباري" 1911م-1942م أصيل الحساسة (عين عبيد بقسنطينة) الذي درس بالزيتونة خلال الفترة ما بين 1924م و 1929م حين قدّم فكرة إنشاء منظمة طلابية مغربية تجمع شمل طلاب أقطار المغرب الثلاث (تونس والجزائر والمغرب)، عرفت باسم "**شبيبة شمال إفريقيا الموحدة**" وتمثلت أهدافها في العمل بكل الوسائل والطرق على توحيد شمال إفريقيا، وأن أقطار الثلاث أمة واحدة غير قابلة للتجزئة وعادات وتقاليد شعبها واحدة، انخرط فيها ما يناهز 150 منخرط وكانوا يعقدون اجتماعاتهم

دوريا في مقر الجمعية بـ 5 شارع الوادي – تونس العاصمة، وأغلب أعضائها من الجزائريين، وفُتحت لها فروعا في الجزائر وتحديدا في "عنابة وسوق أهراس وقالمة.[16]

في السياق ذاته تأسست "**جمعية الشبيبة الزيتونية**" في شهر جانفي 1937م برئاسة الطالب الجزائري "حسن بن عيسى"، وهي هيئة تتكون من ثلاثة أعضاء من الجامع الأعظم هدفها الدفاع عن الطلبة والنخبة المثقفة بوجه عام وتنظيم احتفالات ثقافية لإحياء ذكرى عباقرة الشعراء.[17] كما أسس أبو القاسم سعد الله*[18] مع زملائه سنة 1952م جمعية "**رابطة القلم الجديد**" التي لم يكن لها قانون أساسي ولا مقر رسمي وإنما هي صحبة الأدب والشعر واجتماع الظرف والألفة ويقول عنها مؤسسها: " لقد اجتمع عدد من الأدباء الشبان، معظمهم تونسيين ومعهم بعض الجزائريين ومنهم أنا، وألّفنا رابطة أطلقنا عليها اسم رابطة القلم الجديد، ومن بين أعضائها نجد " الشاذلي زوكار، ابن حميدة، منور صمادح من تونس، ومُحَمَّد علي كرام من الجزائر، وكان هدفها الحديث عن الإنتاج الأدبي وإلقاء بعض قصائد الشعرية على بعضهم البعض،[19] لكن بعد أن غادر أبو القاسم سعد الله تونس انقطعت علاقته بإخوانه في رابطة القلم الجديد.

في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، تأسست عدة جمعيات أهمها جمعية "الطلبة الجزائريين الزيتونيين" بترخيص من الشيخ الإبراهيمي، الذي سعى من خلالها إلى إنشاء خلايا طلابية وطنية ممثلة في هيكل تنظيمي يجمع شتات الطلبة ويرعى أمورهم ويوكل إليه أمر التعريف بالجزائر وربط جسور التعاون بينهم وبين تونس ويكون بمثابة السفارة الدائمة لجمعية العلماء المسلمين في تونس وهو ما يشير إليها بيانها التأسيسي، وقد ألقى الشيخ مُحَمَّد المختار بن محمود كلمة في حفل تأسيس هذه الجمعية نشرت نصها مجلة الثمرة الأولى.[20] وفي مطلع سنة 1935م جرى انتخاب الشيخ الشاذلي المكي[21] رئيسا لها، بينما أسندت الكتابة العامة إلى أحمد بن قصيبة الأغواطي، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف نشاطها ليُستأنف بعد الحرب وانتخبت هيئة جديدة في أفريل 1946م برئاسة الطالب أحمد بودوح، والرئاسة الشرفية

لـ: الطاهر بن عاشور.[22] وظلت الهيئة الإدارية للجمعية تتغير من سنة إلى سنة إلى أن انكمشت وانقسمت مع مطلع الخمسينيات إلى مجموعتين مجموعة الخط الباديسي ومجموعة الخط المصالي، وظل هذا الانقسام قائما ينخر كيان الجمعية إلى غاية سنة 1957م عندما جمدت جبهة التحرير الوطني نشاط جميع الجمعيات والفروع الطلابية وأعادت تشكيلها في تنظيم جديد هو "الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين المسلمين" الذي جمع شمل كل الطلبة وجمع خلافاتهم المذهبية والفكرية وجعل منهم قوة تساند الثورة المسلحة.[23]

3. ثقافة المقاومة في الإنتاج الأدبي للجزائيين بتونس:

شهدت الحركة الأدبية بداية القرن العشرين انبعاثا على يد جيل من الأدباء الزيتونيين وساعد في ذلك ظهور الصحافة وانتشار التعليم وكذا صلة النهضة الفكرية والأدبية في تونس بالمشرق، وقد تميز الأدب في هذه المرحلة بالوعظ والإرشاد والصبغة الدينية، كما أن أهدافه كانت إصلاحية ترمي إلى تنمية الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادئ الخلقية ومن هؤلاء الأدباء "مُحَمَّد الخضر حسين" الجزائري الأصل التونسي المولد والمنشأ فقد ولد بنفطة بتونس سنة 1873م وتنحدر عائلته من منطقة برج بن عزوز في ضواحي طولقة القريبة من بسكرة، كان كاتبا وشاعرا له مؤلفات عديدة أهمها: "مُحَمَّد رسول الله" و"رسائل الإصلاح" و "آداب الحرب في الإسلام" و"القياس في اللغة العربية" و"تونس جامع الزيتونة" و"الخيال الشعري العربي" و"رسالة" الدعوة إلى الإصلاح"، كما كان ينظم الشعر في بعض المناسبات كتهنئة شيوخه عند إتمام دراسة بعض الكتب، له ديوان "خواطر الحياة".[24]

تبرز روح الفكر الثوري في أعمال ومؤلفات الجزائريين في تونس الذين زاوجوا بين العمل السياسي والأدبي وكان لأعمالهم صدى واسع، ومن هؤلاء "مُحَمَّد بن عيسى" الذي كان كاتبا ورعا ومتدينا، أثرى الساحة الأدبية بتونس بعدد وافر من الكتب في شتى أنواع الفنون والعلوم وطبعت كلها بتونس.[25] ومنهم عبد العزيز الثعالبي إسهامات أدبية من خلال مؤلفاته التي

أصدرها وهي: "روح التحرر في القرآن" و"تونس الشهيدة" و"معجزة رسول الله" ومن آثاره المخطوطة: "تاريخ الهند" و"الرحلة اليمنية" و" تاريخ الدولة الأموية".[26]

يعد "مُحَمَّد السعيد الزاهري" من شعراء الجزائر المتميزين، وهذا بشهادة أمير البيان "شكيب أرسلان" الذي قال عنه أنه يرى أن أركان الأدب في الجزائر في ذلك الوقت أربعة: مُحَمَّد السعيد الزاهري وعبد الحميد بن باديس والطيب العقبي ومبارك الميلي.[27] عرف شعره بأنه ذي غاية إصلاحية، ويظهر فيه حبه للوطن ومحاربة البدع والخرافات التي انتشرت في البلاد، له قصائد عديدة منها: "أنين الجزائر" التي نشرها سنة 1923م وقصيدة "ليتني ما قرأت حرفا"، إضافة إلى كتابته الشعر, كان يكتب القصة والمقال الإصلاحي وبعض المواضيع القومية، ترك عددا من الكتب:"كتاب الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" و"حاضرة تلمسان" و"بين النخيل والرمال" و"حديث خرافة" و" شؤون وشجون"[28].

كما ساهم أحمد توفيق المدني في الحركة الأدبية والفكرية في تونس من خلال تأليفه لكتاب "تقويم المنصور" وهو كتاب يشتمل على أبواب شتى في العلوم والفنون والآداب والسياسة طبع بتونس سنة 1922م، ثم أتبعه بتقاويم أخرى سنة 1923م- 1924م-1925م، والجزء الرابع صدر بالجزائر سنة 1926م، كما ألف كتاب " تونس وجمعية الأمم" وهي رسالة طبعت بمطبعة العرب بتونس سنة 1924م، نادى فيها بوجوب انسحاب فرنسا من تونس، زيادة على ذلك ألف " الحركي ثمرة الجهاد" طبع بتونس 1924، و"قرطاجنة في أربعة عصور"، طبع سنة 1927م، وكتاب "حياة كفاح" في جزأين[29].

أما الشيخ أبو اليقظان فقد أسهم بكتاب "إرشاد الحائرين" الذي تضمن موضوعات اجتماعية وأدبية وعرف بشعره، وله ديوانه المطبوع بجزأين صدر سنة 1931م، ويعد أول ديوان تصدره الحركة الإصلاحية في الجزائر، آزر حركة الشيخ ابن باديس الإصلاحية في سنة 1925م بمقالاته وقصائده.[30] قال الشيخ عبد الحميد بن باديس عن شعره يوم أهداه ديوانه سنة 1931م: **"لقد كان ديوانا يشهد لصاحبه الجليل بالمقدرة الفائقة والاضطلاع بفنون**

الشعر وقوة العارضة ... ذلك لأنه لا يتضع الشعر ولا يقوله رضوخا للظروف أو حبا في القول كي لا تمضي حادثة لا يكون له فيها كما هو ديدن كثير من الشعراء، بل أنت تدرك من تصفح الديوان بأن الشاعر يقول الشعر عن تأثر حقيقي وعن شعور لا تشوبه شائبة الرياء ...". [31]

للإشارة فإن قضية الجزائر كانت محل اهتمام الأدباء التونسيين أيضا نذكر منهم "عثمان الكعاك" الذي ألف سنة 1925م كتابا أسماه "**بلاغة العرب في الجزائر**" ونشره زين العابدين السنوسي في مكتبة العرب بتونس، ومما قاله عن الكتاب: أن تعميم الإحساس بالتماس التاريخي، والوحدة اللغوية هو أضمن طريق يُسار به إلى التكافل المنشود، ريثما يتيح الزمان لهذا الشرف نفض الكابوس عنه، وإعلان رغبته الصريحة في الوحدة والسلام.[3332] ويفتتح الكعاك كتابه بالقول: "لست أقصد من تأليف هذه العجالة أن أحيط بجميع أبواب الأدب الجزائري وأن أذكر قائمة تامة في أسماء الأدباء الجزائريين. وحسبي أن أثبت لأبناء الضاد وجود أدب لجارتنا الغربية، (...)، وما كل مقصدي إلا أن أبين للعالم الناهض العربي مقام الأدب الجزائري في مستوى علوم الآداب العربية وأن أستنهض من همم الجزائريين من يلع بالبحث في السياسة والمجتمع والأدب".كما نشير إلى أن الأستاذ "أبو القاسم مُحَّد كرو" من مواليد قفصة بتونس 1924م، من كتاب المغرب العربي الكبير المنتجين، الذي تتلمذ على يديه معظم أدباء الجزائر، له مؤلفات عديدة متعلقة بالجزائر منها: "الشهيد احمد رضا حوحو" طبعه في تونس 1957م، "صوت الجزائر" طبعة ثانية 1957م.[34] وقد تعددت الأعمال الأدبية حول الجزائر فمنها ما تفرد به جزائريون في تونس ومنها ما تفرد به تونسيون نصرة للقضية الجزائرية ومنها ما كان عملا مشتركا بين النخبتين.

4. ثقافة المقاومة للنخبة الجزائرية في الصحافة التونسية:

كان ظهور الصحافة في البلاد التونسية بظهور جريدة " الرائد التونسي" سنة 1860م التي كانت تنشر الأخبار والأحداث الخاصة بالبلاد التركية من قرارات وأوامر وإعلانات الحكومة، وهي رابع الصحف العربية في العالم من حيث قدامة العهد.[35] وقد فتحت الصحافة التونسية أبوابها للطلبة الجزائريين الذين لم يجدوا مناصا من نشر أفكارهم خارج وطنهم الجزائر الذي قام الاستعمار بالقضاء التدريجي على لغته العربية ومصادرة حرياته ونشر ثقافته وصحافته الناطقة بآرائه، استقبلت الصحفيين الجزائريين وفسحت لهم المجال لنشر أفكارهم المناوئة للاستعمار دونما تحفظ أو خشية، وفتحت هذه البادرة صفحة من العلاقات الفكرية والوطنية والتي توطدت بظهور أجيال من المفكرين، ويعود الفضل بالدرجة الأولى إلى تلك المقالة التي نشرها عمر راسم الصنهاجي (1884م – 1959م) الموسومة بـ: **نصيحة الأخ ودعوة الإصلاح**، في جريدة التقدم التونسية سنة1908م،[36] التي مهدت لقيام هذه الصلات الفكرية العميقة. وظهرت أكثر من خلال الإسهام بالكتابة على صفحات صحفها وتوجيه النصح لها من خلال التجارب التي خاضتها ومساعدتها في طباعة بعض صحفها بقصد التحايل على الرقابة الاستعمارية فنجد "الإصلاح" و"وادي ميزاب" طبعتا بتونس، كما كانت الصحافة التونسية النواة الأولى لبروز أدباء وكتاب وشعراء مثلوا الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر أحسن تمثيل.[37]

كان للصحف التونسية وغيرها من المنشورات الوافدة على الجزائر من تونس الأثر البالغ على الحياة الثقافية والأدبية بها وذلك من خلال ما كانت تقوم به بعض الصحف من متابعة مسيرة النهضة الأدبية في الجزائر وفتح أبوابها لبعض الطلبة لينشروا أعمالهم منها "العصر الجديد" و"النهضة" و"الزهرة" و"الوزير" و"الصباح". لقد أخذ رواج الصحف التونسية بالجزائر في التوسع والانتشار بداية مطلع القرن العشرين وحتى سنة 1912م، حيث توقف النشاط الصحفي تماما إلى غاية سنة 1920م، في هذه الفترة لاقت الصحافة التونسية اهتمام الكتاب الجزائريين سواء المهاجرين منهم أو المستقرين بالجزائر، وهذا لما توفر لها من الحرية، حيث شارك في تحريرها أو ترأسها كثير من الجزائريين، وفي طليعة هذه الصحف جريدتي "الحاضرة" و"

تونس"، ولا ريب أن وفرة الصحف التونسية خلال هذه الفترة أتاح للجزائريين مواكبة حركة الإصلاح في العالم الإسلامي عامة ومن المساهمة في التعريف بالجزائر وتقييم ونقد هذه الصحف، وكذلك المشاركة في الحياة السياسية والفكرية بتونس.[38]

عمل الشيخ "مُحَمَّد الخضر حسين" على ممارسة الصحافة كرسالة ومبررا للتعبير عن مذهبه الإصلاحي وآرائه في الدين والحياة والفكر، نشر المئات من المقالات والفصول في مختلف الجرائد والمجلات بتونس وغيرها،[39] ساهم أكثر في الحياة الفكرية التونسية عن طريق تأسيسه لمجلة "السعادة العظمى" سنة 1904م والتي اصدر منها واحد وعشرون عددا وهي تعد رائدة للإصلاح بتونس، حيث دعت إلى تغيير مناهج التعليم الزيتوني والدفاع عن اللغة العربية، وحسب قول الشيخ الفاضل بن عاشور فإنها كانت لسان جماعة الشيوخ المعتدلين الداعين إلى تحقيق الإصلاح وبناء النهضة[40].

ترأس مُحَمَّد الخضر حسين مجلة "الهداية الإسلامية" التي أسسها في القاهرة سنة 1928م وكانت لسان تونس والمغرب العربي في المشرق العربي،[41] كما ساهم في تحرير مجلة "الشباب المسلمين" سنة 1929م وترأس تحرير مجلة "نور الإسلام" 1930م- 1934م، ومقالات في مجلة "البدر الزيتونية" وجريدة "الزهرة" بدءا من 1889م ونظرا لكثرة مقالاته في مختلف الجرائد والمجلات فلا يمكن حصرها كلها.[42]

كما احتك "عمر بن قدور" 1886م – 1932م بالصحافة مبكرا، بداية مع جريدة التقدم سنة 1908م – 1909م، وتحول بعد أن تعطلت إلى الكتابة في جريدة "الحضارة" باللآستانة، وله فيها مقال بعنوان "أمواج الاغتياظ" أو "نكبة تونس في أركان نهضتها"، كتبه عندما ألقي القبض على أركان الشبيبة التونسية سنة 1912م كما كانت له مقالات في "المشير" والحاضرة " سنة 1909م حيث نشر موشحه فيها، إضافة إلى كتاباته عن أخبار وطنه "الجزائر" التي كان ينشرها يوميا في الجرائد التونسية،[43] كما دعا إلى تأسيس جماعة

التعارف الإسلامي بين مفكري المسلمين (الجزائر وتونس والمغرب) ودعوته إلى تكوين جامعة الصحافة الإسلامية منذ 1911 م.[44]

نذكر أيضا "حسين الجزيري"[45] الجزائري الذي بدأ الصحافة منذ شبابه، فكان في سنة 1910م يحرر افتتاحية جريدة "اللواء التونسية" وكاتبا بجريدة "المنار التونسية"، ومراسلا لجريدة الفاروق الجزائرية وكتب للصحف الهزلية لميله إلى الفكاهة، فحرر بجريدة المضحك، وكتب في جريدة "جحا" مدة طويلة، وفي الوقت نفسه كان يقوم بوظيفة الملقن لجمعية "الشهامة" العربية التمثيلية" وهو لا يزال طالبا بالجامع الأعظم. وفي 15 مارس 1910م شارك في إضراب شنه طلبة الزيتونية، كما أصدر في 12 فيفري 1921م "جريدة النديم" وهي أسبوعية أدبية فكاهية، فأظهر نشاطا كبيرا في إدارتها[46]. قال عنه عمر بن قفصية: " ولا تعالي إذا قلنا أنه لا يمكن مقارنته إلا بصفوة صحفي العصر، الأدباء أمثال "عبد الله النديم وحسين شفيق ومحمود بيرم وإضرابهم ممن لا يجود الزمان بمثلهم إلا نادرا".[47]

وقد أصدر "الهاشمي المكي" بعدها جريدة هزلية لتعويض جريدته وأطلق عليها اسم "أبو قشة" وتعني في لغة أهل الجنوب التونسي "القرد"، ظهر عددها الأول في 19 جويلية 1908م وهي جريدة كشكولية هزلية لتحقيق غرضين الأول للإصلاح الاجتماعي والديني والثاني لمقاومة الاستعمار، بعد فترة قصيرة أصدرت السلطة الفرنسية سنة 1909م قرارا بتعطيل الجريدة ورحل إلى جاوة وأصدر جريدة عربية جديدة بعنوان "بوربودو".[48]

في عام 1910م أصدر "مُحَمَّد الصحبي بن المكي" جريدة هزلية بعنوان "أبو خلف". والجزائري الآخر بن عيسى بن الشيخ احمد الجزائري (1880م– 1957م) أصدر في 1909م جريدة بعنوان "جحا"، لكنها عطلت ليصدر بعد عشرة أيام جريدة أخرى بعنوان "جحجوح" وصدر مرة ثالثة جريدة "الضحك" و"الثريا "، كما أصدر عبد الله رزوق جريدة المضحك 1920م.[49]

يعد "مُحَّد سعيد الزاهري" 1899م – 1956م المولود ببسكرة في الجزائر أبرز من كتبوا في الصحافة أيضا، حيث كتب في العديد من الصحف الجزائرية منها: المنتقد والشهاب والنور والأمة والبصائر، لكنه لم يكتف بالكتابة فيها، بل خاض تجربة ثرية في عالم الصحافة وذلك بإصدار مجموعة من الصحف وهي: الجزائر 1925م، البرق 1927م الوفاق 1938م، المغرب العربي 1947م، بالنسبة لجريدة "البرق"، فقد كانت تطبع بتونس ابتداء من العدد 17.[50] أما عن دوره في الصحافة التونسية فكان يكتب في جريدة النهضة التونسية وفيها نشر العديد من قصائده، كما نشر عدد من المقالات في جريدة الوزير لصاحبها الطيب بن عيسى ومقال عن "**الوحدة المغربية**"، ومقال حول"مقالة القيمة" كما كتب في جريدة الزمن مقال عنوانه "هل البربر عرب؟".[51]

كانت للصحفي أبي اليقظان مساهمة في الصحافة التونسية بإصداره جريدة: "وادي ميزاب" والتي كانت تطبع (1926م– 1929م) بتونس وتوزع بالجزائر، كما كتب مقالات في جريدة المنير[52]، وأصدر جريدة النور (1931م– 1933م) ذات التوجه الإصلاحي والتي كان لها في تونس كتابها وقراؤها إضافة إلى مساهمة جريدة الأمة (1933م– 1938م) التي عالج من خلالها القضية التونسية من أهم مقالاته فيها نجد "تونس تعانق شقيقتها الجزائر" و" تكريم الأستاذ أبا اليقظان بتونس" وغيرها.

أما أحمد توفيق المدني فقد عرف بدفاعه عن قضايا التونسيين والجزائريين من خلال مقالاته الجريئة يقول أحمد توفيق المدني:

> *"وجاء يوم أول فيفري 1920م، وكان يوم تحرير الصحافة التونسية من عقالها ... وازدانت الأفاق الفكرية والسياسية والأدبية بتونس بعودة صحف المشير والصواب وعدد كبير من الصحف الجديدة والمجلات الراقية كالفجر والبدر والصادقية ... شمرت عندئذ عن ساعدي وآمنت بأن*

ساعة العمل قد دقت... تقدمت إلى الصحف التونسية خاصة الصواب والوزير بمقالات متوالية اخترت لها رمز المنصور إمضاء حتى لا أظهر باسمي لشر الإدارة ... كما نشرت ترجمة لمقالة "هنري دي شامبون" – صاحب المجلة البرلمانية بباريس – المقتبسة أصلا من كتاب تونس الشهيدة، وهذا في جريدة "المشير" وتهافت التونسيون على المشير يختطفونها من الباعة، فلم يبق في السوق إلا بعض الأعداد فقد حجزتها الإدارة وأمرت بإغلاق الجريدة." [53]

أشاد العلامة مُحَمَّد الفاضل بن عاشور، بأحمد توفيق المدني واعتبره من أبرز الكتاب الإعلاميين قائلا: "ونستطيع أن نحصر البارزين الممتازين في هذا النوع من الكتابة الإعلامية في ستة وهم: سليمان الجادوي ومُحَمَّد بن الحسين وأحمد توفيق المدني ومُحَمَّد المنصف المنستيري ومجد محي الدين القليبي ومُحَمَّد المهدي بن الناصر".[54] وعلى الرغم من أن أحمد توفيق المدني، لم يتحمل مسؤولية إدارة صحف، ولم يتحصل على امتياز إصدارها، إلاّ أنه فرض نفسه على الساحة الصحفية وتواجدت مقالاته في أغلب الصحف التونسية والجزائرية.

لا يمكننا حصر العمل الصحفي الذي أولى اهتمامه بالقضية الجزائرية سواء أكان من قبل كتاب تونسيين أم جزائريين، من أمثال مفدي زكريا الذي كان مراسلا لعدد كبير من الصحف والمجلات التونسية بأسماء مستعارة وتميزت مقالاته بالطابع الثوري وكذا أبو القاسم سعد الله الذي نشر مقالات في جرائد "النهضة" و"التونسية" و"مجلة المعارف" وعندما أصدرت جبهة التحرير الوطني بتونس صحيفة "المقاومة" و"المجاهد" أصبح جل هؤلاء من محرريها.

5. خاتمة:

شكلت تونس أرضية مناسبة للجزائريين أثناء الحقبة الاستعمارية بعد أن وجدوا فيها اهتماما بقضيتهم، وتجسد هذا الاهتمام قبل الثورة وإثناءها في مجال النشاط الثقافي والسياسي وتأسيس الجمعيات والانخراط في الأندية الأدبية، فنشأت بين الجزائريين وعديد الأحزاب

والجمعيات والمنظمات الناشطة بتونس علاقات وطيدة، فتنوعت لتشمل العمل الثقافي والأدبي والتنسيق المتبادل بين الطرفين، فكان مجال الاهتمام التونسي بالجزائر في جوانب عديدة، منها الجمعيات والأحزاب السياسية والعمل الصحفي، فقد فتحت الصحافة التونسية أبوابها للصحفيين الجزائريين وفسحت لهم المجال لنشر أفكارهم المناوئة للاستعمار، وكان للتونسيين مساهمات في الحياة الثقافية والأدبية والصحفية في الجزائر، فتعددت كتابات الأدباء والشعراء التونسيين حول الجزائر والأحداث التي شهدتها، وكان التونسيون شديدي الحرص على دعم الصحف الجزائرية، فلم يقفوا عند الدعم المعنوي الأخوي فحسب، بل كرسوا أقلامهم لإمدادها بالمقالات السياسية والدراسات الأدبية والقصائد الشعرية، التي تحتفي بالنضال الجزائري ضد الاحتلال وتدعو إلى التحرر، وهكذا كانت تونس صوتا للجزائر ولثورتها وقضيتها، بل وصوتا للفكر الثوري قبل انطلاق العمل المسلح، وشكلت قاعدة خلفية فكرية بزغت منها الإرهاصات الأولى لثورة نوفمبر 1954م.

5. قائمة المراجع:

[1] عبد العزيز الثعالبي: من أصل جزائري ولد بتونس سنة 1874م أسس جريدة "سبيل الرشاد" سنة 1895م، وجريدة "الاتحاد الإسلامي" سنة 1909م كانت له مشاركات في الحركة الطلابية سنة 1910م، ترأس "الحزب الحر الدستوري" ثم نفي إلى المشرق سنة 1923م وعاد إلى تونس سنة 1937م توفي سنة 1946م.

[2] شارل أندري جوليان، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب مُحَمَّد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، (د – ط)، (د- ت)، ص 91 - 94.

[3] كرمال صموت، الاستعمار الرأسمالي الفرنسي وحركة الشباب التونسي 1881م – 1914م، تعريب عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، العدد 1، جانفي 1974، ص ص 72 – 73.

[4] الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط2، (د.ت)، ص 41.

[5] نفسه، ص 54.

[6] أحمد خالد، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1979، ص 53 – 55.

[7] حسن حسني عبد الوهّاب، خلاصة تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمّادي السّاحلي، دار الجنوب، تونس، (د . ت)،2001، ص 167 – 168.

[8] الطاهر عبد الله، المرجع السابق، ص 61.

[9] **محمود الماطري**: 1897م –1972م ولد بتونس وتعلم ب المدرسة الصادقية، سافر إلى فرنسا سنة 1919م والتحق بكلية الطب وتخرج منها سنة 1926م، يعد من أبرز قادة الحركة الوطنية التونسية انضم إلى "الحزب الحر الدستوري التونسي" سنة 1933م صعد إلى كرسي الوزارة أكثر من مرة في عهد المنصف باي.

[10] نفسه، ص ص 66 – 69.

[11] زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (د . ت)، 1985، ص 479.

[12] مُحَمَّد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار الحكمة، الجزائر، (د . ت)،2007، ص 12.

[13] علي الزيدي، الزيتونيين ودورهم في الحركة الوطنية التونسية (1904م– 1945م)، دار نهى، صفاقص، ط1، 2007، ص 69.

[14] أحمد توفيق المدني، مذكرات حياة كفاح، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1976، ص ص331 – 332.

[15] علي الزيدي، المرجع السابق، ص 554.

[16] عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954، دار هومة، الجزائر، (د . ت)، 2004، ص ص 137 – 140.

[17] مختار العياشي، البيئة الزيتونية (1910م- 1945م)، ترجمة حمادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس،(د . ت)، 1990، ص 199.

[18] مُحَمَّد المختار بن محمود، "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين"، الثمرة الأولى، مطبعة الشباب، تونس، (د . ت)، 1936- 1937م، ص ص 25 - 27.

[19] أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د . ت)، 2005، ص ص 49 – 50.

[20] مُحَمَّد المختار بن محمود، "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين"، الثمرة الأولى، مطبعة الشباب، تونس، (د . ت)، 1936م – 1937م، ص ص 25 - 27.

[21] ولد بخنقة سيدي ناجي ببسكرة سنة 1912م التحق بجامع الزيتونة وهناك ترأس جمعية الطلبة الجزائريين (1936م- 1939م)، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية أعتقل وبعد إطلاق سراحه تفرغ للنضال الفكري والسياسي السري، اشترك في الثورة التحريرية وغداة الاستقلال اشتغل بالتعليم ووظائف إدارية أخرى توفي سنة 1988م.

[22] أحمد بودوح: ولد في تكسانة بجيجل سنة 1920م انتقل إلى الزيتونة سنة 1939م تحصل على شهادة التحصيل بها سنة 1946م ترأس معهد بن باديس سنة 1949م تحصل على شهادة العالمية بتونس سنة 1958م توفي سنة 1986م بباريس.

[23] النجار عمار، الثمرة الثانية، إصدار جمعية الطلبة الجزائريين التونسيين، مطبعة التليلي، تونس، (د . ت)، 1947-1948، ص08.

[24] أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية، القاهرة، (د . ت)،1965، ص 176.

[25] مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1،1986، ص 26.

[26] حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ص 291.

[27] مُحَمَّد السعيد الزاهري، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، مطبعة الاعتدال، دمشق، ط2، (د.ت)، ص 4.

[28] صالح خرفي، شعراء من الجزائر، ج1، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، (د . ت)، 1969، ص ص 30 - 31.

[29] محمد محفوظ، المرجع السابق، ج4، ص 286.

[30] محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،(د . ت)، 1984، ص ص 51 - 52.

[31] محمد ناصر، المرجع السابق، ص ص 98 - 99.

[32] عثمان الكعاك، بلاغة العرب في الجزائر، تصدير زين العابدين السنوسي، مكتبة العرب، تونس، (د.ت)، 1344هـ، ص ص 11-12.

[33] نفسه، ص ص 13 – 14.

[34] عمر بن قفصية، أضواء على الصحافة التونسية(1860م-1970م)، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس، (د . ت)، 1972، ص 6 – 9.

[35] عمر بن قفصية، أضواء على الصحافة التونسية(1860م-1970م)، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس، (د . ت)، 1972، ص 6 – 9.

[36] محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، مطبعة لافوميك، الجزائر، ط1، 1984، ص 91- 92.

[37] محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس (1900م- 1962م)، ج1، بيت الحكمة، قرطاج، (د . ت)، 1991، ص 17.

[38] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900م- 1962م)، الدار العربية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983م، ص 80.

[39] محمد مواعدة، محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، (د . ت)، 1974، ص 38.

[40] محمد أبو القاسم كرو، محمد الخضر حسين، دار المغرب العربي، تونس، (د . ت)، 1973، ص 63.

[41] محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج1، المنشورات العصرية، بيروت، (د . ت)، 1980، ص85.

[42] الصادق الزمرلي، أعلام تونسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص 202.

[43] محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900م- 1962م)، الدار العربية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ص ص 158-159.

[44] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص 279.

[45] حسين الجزيري: ولد بتونس العاصمة سنة 1894م تلقى تعليمه في الكتاب ثم بجامع الزيتونة، مارس الكتابة في عدة صحف منها " اللواء" و" المنار" والمضحك"، أصدر جريدة " النديم" سنة 1921م، من مؤسسي "الحزب الحر الدستوري"، توفي سنة 1974م.

[46] محمد محفوظ، المرجع السابق، ص ص 29- 30.

[47] عمر بن قفصية، المرجع السابق، ص 149.

[48] علي الزيدي، المرجع السابق، ص 30.

[49] عمر بن قفصية، المرجع السابق، ص257.

[50] مولود عويمر، الشيخ محمد السعيد الزاهري في عالم الصحافة، البصائر، العدد 574، الاثنين 12 – 18 ذي الحجة 1432 هـ / 20 نوفمبر، ص 16.

[51] صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(د . ت)، 1986، ص 164.

[52] محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص ص70 - 74.

[53] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص 24 - 28.

[54] محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرنين(13-14هـ/19-20م)، راجعه محمد المختار العبيدي، بيت الحكمة، تونس، ط1، 2009، ص ص 174 – 175.